جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة: 2020 – 2021

المستوى: ماستر1 السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: مصادر الجزائر في العصر الحديث

أستاذ المادة: أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس كتاب المرآة لحمدان خوجة

كتاب المرآة لحمدان خوجة

نبذة عن حياة بمؤلف الكتاب:

يعد كتاب المرآة من المصادر الأساسية لتاريخ الجزائر الحديث، إذ يعد بالفعل الوثيقة الوحيدة ذات الأهمية الموضوعية من قبل جزائري، حيث عاصر المؤلف حمدان خوجة الاحتلال الفرنسي للجزائر وشهد على هول الكارثة التي اصابت الأهالي، بعد استسلام الداي حسين واحتلال مدينة الجزائر وما جاورها.

كما ساعدت مكانة المؤلف الاجتماعية والسياسية، ومعرفة جيدة بأحوال الناس و معناتهم، فمن خلال هذا الكتاب سوف نبرز أهم المواضيع التي تطرق إليها المؤلف وسبب تأليفه، والغاية من ذلك، وما هي أهم مكونات الشعب الجزائري خلال الحكم العثماني، وأبرز التقسيمات الإدارية والعسكرية، وأهم الاحداث التي عاصرت الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ولد حمدان بن عثمان خوجة بمدينة الجزائر سنة 1773م، وهو من الكراغلة (أم جزائرية وأب تركي)، وترعرع في كنف أسرة عريقة المنبت. كان والده فقيها وأمينا عاما للإيالة " مكتابجي"، أما خاله فقد تقلد منصب أمين السكة (وزير المالية أنداك). ظروفه هذه ساعدته على أن يحظى برعاية فائقة وتعليم رفيع، فنهل من مختلف العلوم كعلم الأصول والفقه والفلسفة. بالرغم من ذلك لم تكتمل ثقافته إلا من خلال رحلاته عبر بلدان إسلامية ومسيحية. فاستوعب أهم الأحداث التي عرفها العالم لاسيما الحركات الفكرية التي أحدثت صراعا قويا بين النظم المحافظة والنظم الليبيرالية، كان لها أثرها القوي على شخصيته. ولقد ألم ببعض اللغات الأجنبية فكان يحسن إلى جانب العربية والتركية اللغتين الفرنسية والإنجليزية، لكنه لم يكن يجيد كتابتهما.

قضى حمدان خوجة أغلب حياته في خدمة الصالح العام خاصة بعد احتلال مدينة الجزائر، إذ أنه تبنى سلوك الحذر والتوفيق بين الطرفين الفرنسي والجزائري، وبذل كل ما في وسعه لإقناع الداي بضرورة التفاهم مع الفرنسيين لإبرام صلح قد يجنب الجزائر بعض الكوارث.

وفي عهد الاحتلال عينه الجنرال" كلوزيل" عضوا في بلدية الجزائر وفي اللجنة المكلفة بتعويض الأشخاص اللذين فقدوا ممتلكاتهم، لكنه عزل من منصبه، هذالأنّ ه كان شوكة في حلق الحكومة الفرنسية في الجزائر نظرا لمواقفه الجريئة، مثل رفض السماح" لكلوزيل" بالاستيلاء على المساجد والمؤسسات الخيرية. ولقد كان تجريده من جميع أملاكه عاملا آخر زاد من سخطه على الاستعمار الفرنسي فرفع قضيته هذه إلى المحاكم العدلية العليا بباريس، هذه القضية لم تنقص من عزيمة حمدان

خوجة بل شجعته أكثر على الاستمرار في مواجهة المعمرين الفرنسيين إذ دافع على احترام ما جاء في وثيقة الاستسلام التي تم التوقيع عليها يوم 5 جويلية 1830، وحارب سياسة الإبادة والاستئصال. استمرت مساعي حمدان خوجة في الخارج فقام بدور الوسيط بين" الأمير عبد القادر" و" الحاج أحمد باي" "الباب العالي" في صالح القضية الجزائرية.

لا يعرف تاريخ وفاته على وجه التحديد على الرغم من أنّ " جورج إيفار" حدده ما بين سنة 1840 و1845. في حين قال" محمد بن عبد الكريم" في كتابه" حمدان خوجة الجزائري ومذكراته" ثبتت وفاته أواخر 1840.

التعريف بالكتاب:

الكتاب موسوم بعنوان المرآة للمؤلف الجزائري حمدان بن عثمان خوجة فام بترجمته وتقديمه وتحقيقه الدكتور محمد العربي الزبيري، كما تصدر الكتاب تقديم من طرف رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة، نشر الكتاب من طرف ANEPفي سنة 2005 وهو في مجلد واحد، تبلغ عدد الصفحات الكتاب 279 صفحة.

إن كتاب (المرآة) هو، بالفعل الوثيقة ذات الأهمية، الموضوعة من قبل جزائري، التي وصلت إلينا والتي تشهد على هول الكارثة التي أوقعها الاحتلال الفرنسي على الجزائر العاصمة وما جاورها، بعد استسلام الداي حسين ورحيله إلى المنفى من قبل حتى أن يتخذ التدخل الفرنسي شكل استراتيجية غزو استدماري ممنهج لبلادنا. لقد سلم كتاب (المرآة) من التدمير والتخريب الشاملين اللذين طالا تراثنا قاطبة بما في ذلك، بل وخصوصا، تراثنا المكتوب، لأن حمدان خوجة نشره بباريس، باللغة الفرنسية، سنة 1833إذ ّه كتاب يمكن، بل يجب، قراءته بصفته شهادة على الغزو الاستدماري وإدانة لما كان عليه منذ مهلته الأولى: أي عملية إبادة للحضارة والتمدن لا يمكن أن تنجح إلا بفناء ساكنة الجزائر وإبادتها.

لكّ ه لا ينبغي قراءة كتاب (المرآة) بصفته بيانا مناهضا للاستعمار وكفى، فبالنسبة لهذا الكرغلي المنتمي إلى الأقلية الحاكمة التركية، الذي سافر إلى أوروبا والذي كان يحسن الفرنسية والإنجليزية، إذا كان الاحتلال الفرنسي أمرا سلبيا على الإطلاق، فإن الإطاحة بالداي حسين، بفعل الاجتياح العسكري الفرنسي، يمكن أن تكون لها آثار إيجابية من حيث أنها تفتح المجال أمام إمكانية تحديث المجتمع الجزائري وانبعاثه وفق نمط الدولة الوطنية. إن مسعى حمدان خوجة وفكره السياسي في مجملها. إلى غاية ذهابه إلى المنفى بإسطنبول سنة 1836 والتحاقه بالرفيق الأعلى سنة 1842، كان يرومان تحقيق

هدف ذي أبعاد ثلاثة، إعادة رسم استقلال الجزائر على أساس إقامة دولة وطنية ومباشرة حوار مع فرنسا يضع حدا لمواصلة حرب الإبادة ومباشرة تحديث المجتمع الجزائري.

محتوى الكتاب:

يستهل الكاتب في الجزء الاول تاريخ الجزائر الثقافي والاجتماعي والسياسي بشكل مفصل ودقيق إذا يقول ان سكان إيالة الجزائر عشرة ملايين نسمة، وتتكون هذه الإيالة من مدن، وقرى وموانئ وأريف، غير ان الجزء الاكبر الذي هو قاعدتها ومصدر ثروتها يوجد خارج المدن، ويسكن هذا الجزء أناس يطلق عليهم اسم البدو.

ينقسم البدو إلى طبقتين أو نوعين متميزين من السكان فسكان السهول هم العرب، أصلهم من المشرق وينحدرون من قبائل مختلفة ، اما سكان الجبال و الاماكن الوعرة فهم البربر الحقيقيون (القبائل) الذين تختلف لغتهم عن لغت العرب. ويضيف الكاتب عن وصف البربر أنه عندما احتل بن يومي أفريقيا لاحظ ان هؤلاء السكان كانوا جهلة متزمتين محبين للحرب شجعان ولكنهم عنيدون، يعيشون مرتاحي البال لا ينشغلون بالمستقبل إلا قليلا، ويرتادون ملابس غاية في البساطة، ويستمر الكاتب بسرد تاريخهم حيث كيفية اعتناقهم للإسلام وذكر المرابطون الذين يقطنون بين القبائل يعلمونهم الأخلاق ومبادئ الإسلام ويفظون الخصومات بين القبائل والاعراش.

ثم يروي مشاهد الرحلة وهو مار بديارهم إلى قسنطينة فيقدم اوصافهم طبائعهم وعاداتهم في الفصلين الثاني والثالث، حيث يصف لباس الرجال والنساء وعادات الطبخ والاعياد وكيفية بناء منازل ومساجد القري الصغيرة والمدن التي زارها.

أما الفصل الرابع فخصصه لسكان السهول وذكر طبائعهم وعاداتهم إذ ينقسم سكان الأماكن المنخفضة أو السهول إلى قسمين: أهل الصحراء الرملية وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة (الهضاب) والجميع من أصل عربي ويتكلمون اللغة العربية مهنتهم الفلاحة، ومسكنهم تحت الخيام المصنوعة من الوبر ، ليس لهم مكان مستقر حيث يجدون المرعى لماشيتهم، ويفصل المؤلف في نمط اللباس وطريقة عيشهم ويبين اختلاف الطبقات الاجتماعية بين السكان من حيث الملبس والمأكل والمأوى. أما سكان الصحراء البعيدة فإنه لم يزرهم شخصيا وكتفا برواية عن أشخاص يثق بهم.

وبعد ان اتم من وصف السكان انتقل في الفصل الخامس إلى وصف الاقاليم والمدن المتيجة : طبائع سكانها وعاداتهم، إن منطقة المتيجة التي دوخت بعض الشيء ذلك الكاتب المشهور (كلوزيل) وجعلته يحلم بأنها الارض الموعود ، التي أراد الجنرال أن يحولها إلى جزيرة في وسط هذه القارة الواسعة.

تعرض الكاتب إلى بعض العائلات المالكة للأراضي، فوصف طبيعة سكانها على أنهم مجلوبون على الكسل والنذالة، وليس لهم مورد غير الاموال التي يدفعها الجزائريون مقابل الاعتناء بمزارعهم وقطعانهم، كما ذكر اهم المحاصيل الزراعية ووقت زراعتها من قمح وشعير وغيرها من الحبوب، أما سكان البليدة يشبهون بعض الشيء سكان المتيجة إلا أنهم أكثر منهم حضارة، أنهم يصنعون قماش المناديل التي تباع في مدينة مدينة الجزائر، وبالرغم ذلك فإنهم فقراء لا يعرفون تجارة ولا صناعة مناخهم غير صحي.

وقد خصص الكاتب الفصل السادس لسكان الجهة الغربية، حيث يذكر الكاتب أنّ هذه المقاطعة اقل خصبا وأقل اتساعا من مقاطعة قسنطينة، وتعد تلمسان إحدى المدن الرئيسية فيها، ومازالت تحتضن مباني كبيرة وآثارا هندسية جميلة للغاية، وقد كانت هذه المدينة في القرن السابع للهجرة عاصمة للمقاطعة تأوي حكومة مستقلة، وهي أقدم من مدينة الجزائر، كماذأّ ها كانت مقرا رسميا لدولة عبد المؤمن.

عاد حمدان خوجة إلى ذكر مدينتي المدية وملیانة، حيث وصف سكان المديةبأذ ّ هم سكان شجعان ومتصلبون. لا يميلون إلى الصناعة، مناخهم معتدلولكنّ ه بارد دائما تقريبا، أما سكان ملیانة فهم يتميزون بنوع من العناد، وأرضهم خصبة للغاية وهم فلاحون، وثمارهم مميزة، وأنّ مناخهم صحي.

مدينة وهران ذكر الكاتب أنّ المدينة لم تدخل إلى جوزة الجزائريين إلا سنة 1790م، حيث استعادها من الاسبان الداي قارة محمد (محمد الكبير)، وهي آهلة بسكان معسكر والمغاربة وبني مزاب والبرابرة، فموقع وهران الجغرافي جعل من سكانها تجارا، وحتى الباي امتهن التجارة، فالدراهم متوفرة والفلاحة مزدهرة والبلاد في رخاء.

أّما عن مدينة معسكر، فيذكر الكاتب أن سكانها من كانوا من الأتراك والعرب والبربر وفيها كثير من الكراغلة طبائعهم وعاداتهم كثيرة شبيهة بطبائع وعادات أهل تلمسانإذ ّ هم فلاحون ويشغلون في تربية الخيل، ويمارسون التجارة مع بني ميزاب، وفي هذه المنطقة تصنع البرانس المشهورة السوداء ذات اللون الطبيعي، وعندما كانت وهران في قبضة الإسبان، كانت معسكر هي مقر الباي (البايليك).

وبالنسبة للجزائر العاصمة، فيذكر المؤلفأذ ّ ها تسكنها طبقات مختلفة من الناس، وكان سكانها في الأصل من العرب الذين فروا من إسبانيا، وحاليا فإنّ جزءا كبيرا من سكانها مدينة مكّون من العرب والأتراك والأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين الصنفين، ويسمون الكراغلة.

كما وصف الكاتب سكان هذه المدينةأنّ هم شجعان واجتماعيون وأوفياء للعهود وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم وعيشهم، ونظيفون في منازلهم، فهم حرفيون وتجار، ولقد تميزوا بصناعة الأقمشة الحريرية والمحازم، إذ يصدرونها إلى مملكة المغرب وتونس وطرابلس، وأّما من حيث الطاقات الفكرية، فإن خيال الجزائريين خصب، وأفكارهم منظمة.

لقد تعرض الكاتب في الفصل الثامن إلى حكومة الأتراك وتنظيمها وأصلها، وكيف استطاعت أن تسيطر على الشعب الجزائري، وهذا من خلال العدل والمساواة بين الرعية، ولكسب ود العرب والبربر كان الأتراك يظهرون أنفسهم في مظهر حماة الدين، ويمتنعون عن القيام بكل ما هو مناف للقوانين ولا يعملون إلا بالقانون، كما أنهم يقيمون الصلاة بانتظام مما جعل الأهالي يتصورونأنّ هم مرابطون وصالحون فخضعوا لهم طواعية وبثقة عمياء.

أما عن القرصنة البحرية فقد تعرض الكاتب إلى كيفية تجهيز السفن وتوزيع الغنائم عندما تجلب إلى مدينة الجزائر، فالبضائع تباع في الأسواق وتأخذ الخزينة العامة الخمس كنصيب لها، ولقد شملت سلطة الداي على الأمر بتطبيق القوانين المدنية والعسكرية، والإشراف على حصون المدينة وتنظيم الجيوش ومراسلة القبائل المختلفة، إذ يعتنون بالعلوم والآداب، ففيهم الشعراء والأدباء وأساتذة التاريخ والمشرعون. ومن حيث التكوين الجسدي، فإن أجسام الجزائريين رشيقة، وذلك راجع إلى امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي، وقد أنتج عنصراً مختلطا من نوع رفيع تقل فيه الأمراض والعاهات.

وللباشا أو الداي نائب يحتفظ بمفاتيح الخزينة يسمى الكاهية، وتتكون أعضاء الحكومة من وكيل الخراج والخزناجي وخوجة الخيل الذي يشرف على الاملاك الوطنية والمقطجي الذي يشرف على سجل محاسبات الدولة وسجل القوانين العسكرية.

أما الجزء الثاني من الكتاب فكان مخصصا لسرد أحداث الاستعمار الفرنسي على الجزائر وأسبابها، فسببها المباشر في نظر الكاتب كان مطالبة الداي حسين قنصل فرنسا بتسديد الديون التي يعود تاريخها إلى الثورة الفرنسية، إذ ترتبت تلك الديون من عملية تزويد فرنسا بالحبوب، وقدرت هذه الديون بسبعة ملايين فرانك، لكن جواب القنصل كان في متنها الوقاحة، فغضب الداي عليه وضربه بالمروحة، فاعتبرت فرنسا هذا التصرف إهانة لها.

لقد تعرض الكاتب في الفصل الثاني إلى الغزو الفرنسي للجزائر، ووصول الجيش الفرنسي إلى سيدي فرج، حيث كلف الداي حسين إبراهيم أغا بالدفاع عن مدينة الجزائر، لكنه لم يكن قائدا ممتازا ومحنكا، ولم يكن يعرف الشيء الكثير عن الخطط الحربية والتكتيك العسكري، حيث يقول حمدان أنه

تنبه لفشل الأغا في الدفاع عن المدينة، وذلك لما شاهده من تقصير وضعف في شخصية الأغا، وقلة في العتاد والجند ، ويصف الكاتب أحداث المعركة ومحاصرة الجيش الفرنسي لمدينة الجزائر، حتى استسلام الداي حسين بتوقيعه على المعاهدة يوم 5 جويلية 1830مع الكونت دوبرمون.

المراجع:

مدان خوجة، المرآة، تعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر 2005.

معمر حبار، عثمان خوجة الجزائري من خلال كتابه "المرآة"، فيفري 2019،
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2019/02/03/484251.html

دراسة كتاب المرآة لحمدان خوجة،
https://www.algeriachannel.net/2012/07/06

كمال بن صحراوي، موقف حمدان خوجة من اليهود من خلال كتاب " المرآة" ،مجلة علوم إنسانية، ع: 43: خريف 2009. https://www.aranthropos.com